

دراسة وتقديم: الدكتور عز الدين اسماعيل

اختلف المؤرخون لحياة ابي القاسم الشابي حول يوم مولده ، والشهر الذي وقع فيه ذلك اليوم ، ولكنهم اجمعوا على ان مولده كان في سنة ١٩٠٩ ، ثم يرجح الاستاذ ابو القاسم محمد كرو انه ولد في شهر مارس (آذار) . وكانت ولادته في بلدة « الشابية » ، واليها كانت نسبته ، وفيها دفن . وقد عرف بيت الشابي على مدى اجيال بالعلم والفضل ، وكان الشيخ محمد بن بلقاسم الشابي - والد شاعرنا - من نسل هذا البيت . كان عالما فاضلا ، درس بالجامع الأزهر في القاهرة ،

وقد نقل الشابي هذه الحقيقة الى الشعب بأسره،
فنظر اليه من خلالها ، وأدرك أنه لن يخرج - أي هذا
الشعب - من حالة الموت الى عنفوان الحياة إلا اذا
نشط فيه دافع الحياة ، إلا اذا « أراد » حقا أن يكون
شعبا حيا . وهذه الإرادة لا تتحقق بطريقة عفوية ، بل
هي رهن بمدى حرارة « الأشواق » التي يستشعرها
الانسان ازاء الحياة . فاذا اشتعلت في نفسه هذه
الأشواق تولدت الإرادة ، وتغلب فيه دافع الحياة على
دافع الموت ، وعند ذلك يصبح الطموح دليل الانسان
الى المغامرة . فاذا خمدت أشواق الحياة في نفس
الانسان فقد الطموح وكف عن المغامرة ، وصار حيا كأنه
ميت ، أو ميتا كأنه حي . وفي هذا يقول الشابي أبياته
المشهورة من قصيدته «ارادة الحياة» :

إذا الشعب يوما أراد الحياة
فلا بد أن يستجيب القدر

ولا بد لليل أن ينجلي
ولا بد للقيد أن ينكسر

ومن لم يعانقه شوق الحياة
تبخر في جوها واندرثر

فويل لمن لم تشقه الحياة
من صفة العدم المنتصر

ثم يعود في نفس القصيدة لكي يؤكد هذه المعاني
حين يقول على لسان الارض :

ابارك في الناس اهل الطموح
ومن يستلذ ركوب الخطر

والعن من لا يمشي الزمان
ويقنع بالعيش ، عيش الحجر

هو الكون حي يحب الحياة
ويحتقر الميت مهما كبر

فلا الافق يحضن ميت الطيور
ولا النحل يلثم ميت الزهر

ولولا أمومة قلبي الرؤوم
لما ضمت الميت تلك الحفر *
فويل لمن لم تشقه الحياة
من لعنة العدم المنتصر

ولكن كيف يمكن أن تتولد في النفس الذابلة تلك
الاشواق الحارة ؟ يجيب الشابي بقوله :

افتح فؤادك للوجود ، وخله
لليم ، للأمواج ، للديجور
للثلج تنشره الزوابع ، للأسى ،
للهور ، للآلام ، للمقدور
واتركه يقتحم العواصف هائما
في أفقها المتلبد المرقور

* لهذا البيت رواية اخرى هي :

لفرت عن الميت تلك الحفر

ولولا أمومة قلب رؤوم

ويخوض أحشاء الوجود مقامرا
في ليلها المتهيب المحذور

حتى تعانقه الحياة ويرتوي
من ثفرها المتأجج المسجور

انها اذن دعوة الى تجلية مرآة القلب وتخليصها
من الشوائب العالقة بها ، حتى تنعكس على صفحتها
صور الوجود المادي والمعنوي ، ودعوة الى المغامرة ،
بل المقامرة ، غير المأمونة العواقب ، باقتحام العواصف،
والخوض في صميم الوجود .

وهذه الفلسفة لم تكن مجرد دعوة يتقدم بها مصلح
الى شعبه ، بل كانت تجربة حية يعيشها شاعر قبل
كل شيء . فقد كان الشابي مقبلا على الحياة منهمكا
فيها ، ولكنه كذلك لم يكن ليتوقف عند مظاهرها
السطحية العارية ، بل كان يحاول تجاوز هذه المظاهر
الى الاعماق ، الى الحقيقة الكلية التي تستخفي وراء
الصور والاشكال المتعددة . وربما كان لقراءاته الصوفية